نشأة اللغة

يقول السيوطي: « قيل إنّه تعالى علَّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية والفارسية، والسريانية، والعبرية، والرُّومية، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها. ثم إن ولده تفرَّقوا في الدنيا، وعلق كلٌّ واحد منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبتْ عليه، واضمحلَّ عنه ما سواها، لبُعدِ عهدهم بها، وإذا كان الخبرُ الصحيح قد ورد بهذا وجب تَلقِّيه باعتقاده، والانطواء على القول به» (المزهر:1:11)

يقول السيوطي: «قال أهل التحقيق من أصحابنا: لابد من التوقيف في أصل اللغة الواحدة، لاستحالة وقوع الاصطلاح على أوّل اللغات من غير معرفةٍ من المصطلحينبعين ما اصطلحوا عليه، وإذا حصل التوقيف على لغةٍ واحدة جاز أن يكون ما بعدها من اللغات اصطلاحا، وأن يكون توقيفا». (المزهر: 27)

يقول ابن جني: «وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكلّ واحد منها سمة ولفظا، إذا ذكرعرف به ما سمّاه، ليمتاز من غيره، وليُغْنى بذكره عن إحضاره إلى مرأة العين، فيكون ذلك اقرب وأخف وأسهل من تكلّف إحضاره، لبلوغ الغرض في إبانة حاله... فكأنّهم جاءوا إلى واحد من بني آدم، فأومأوا إليه، وقالوا: إنسان إنسان إنسان، فبأيَّ وقت سمع هذا اللفظ علم أنّ المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا: يد، عين، رأس، قدم، أو نحو ذلك. فمتى سُمعت اللفظة من هذا عرف معنِيُّها، وهلم جرّا فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف» (الخصائص، 1:44)

يقول كارم غنيم: «ظهر لأهل اللغة العربية أن المفردات قد تكونت من أصول ثنائية البناء أي مركبة من حرفين، تحاكي أصوات الطبيعة كأصوات الريح والمياه والمطر والرعد وأصوات الحيوانات وأصوات الإنسان البدائي، مثل هبوب الريح وخرير الماء ومواء الهر وصهيل الجواد، فإن فاء الفعل وعينه وأفعالها : هب، خر، ماء، صهل، يحاكيان الصوت الطبيعي »

ومن ناحية أخرى يشير **إبراهيم أنيس** إلى أن الألفاظ «تختلف باختلاف اللغات حتى في الفصيلة الواحدة، فليس لخرير الماء، أو حفيف الشجر، أو مواء الهر، أو نباح الكلب، في لغات البشر كلمات مشتركة في لفظها أو بعض لفظها» (دلالة الألفاظ، 23)

التحليل:

ذهبت الدراسات اللغوية العربية القديمة في تفسير أصل الغة مذهبين: الأول توفيقا؛ أي تم صنعها على يد الله سبحانه وتعالى، والثاني أنها جاءت اصطلاحا؛ أي تم صنعها على يد من مجموعة من الحكماء، وتؤكد ذلك أقوال السيوطي وابن جني أعلاه.

إن نشأة اللغة من القضايا لتي أُدرجت في دراسات فقه اللغة، وقد تعددت الآراء والفرضيات التي تفسر نشأة اللغة الإنسانية الأولى، ومن أهم هذه النظريات (الفرضيات)، النظريات الآتية:

1.**نظرية الإلهام والوحي والتوقيف:** يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة هبة من الخالق، ولا شأن للإنسان بوضعها، وقد بيّن ذلك ابن فارس في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة" وغيره من الذين يرون أن اللغة توقيفية، انطلاقا من الآية الكريمة ﴿وعلَّم آدَمَ الأسماء كلّها﴾ (سورة القرة، الآية 31).

2.**نظرية الاتفاق والمواضعة والاصطلاح:** يرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة اصطلاح وتواضع بين أفراد المجتمع، يقول ابن جني: «أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنّما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف»، وقد مال كثير من العلماء والمفكرين إلى هذه النظرية، منهم: الفيلسوف اليوناني ديموكريط وأرسطو والمعتزلة، وقال بها من المحدثين أيضا : آدم سميث الانجليزي.

3.**نظرية محاكاة أصوات الطبيعة:** يرى أصحاب هذه النظرية أن نشأة اللغة يعود إلى محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة المحيطة به، بقول ابن جني: «قال الخليل كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا فقالوا: جر، وتوهموا في صوت البازي تقطعا فقالوا: صرصر». وقد وُجّه لهذه النظرية انتقاد أساسي مفاده أن ألاف من الكلمات لا توجد علاقة بين معناها وصوتها.

ويرى الباحثون العرب أن الدراسات الغوية العربية الحديثة تتعايش فيها المعلومات الجديدة جنبا إلى جنب مع المعلومات القديمة، يؤكد إبراهيم أنس ومحمود حجازي وعبد الصبور شاهين والبدراوي زهران وعبده الراجحي أنه «ليست هناك مناسبة بين اللفظ ومدلوله»، في حين يرى أحمد قدور ومحمد الأنطاكي أن «ما ذكره القدماء والمحدثون حول القيمة التعبيرية للحرف الواحد ينبغي أن يؤخذ بالمزيد من الاحتراز حتى لا ينساق المرء وراء بضعة أمثلة لا تكفي لحسم قضية مهمة كهذه».

وثمة نظريات أخرى حول نشأة اللغة الإنسانية منها:

- نظرية الأصوات التعجبية العاطفية: نظرية pooh-pooh
- نظرية الاستجابة الصوتية للحركة العضلية: نظرية yo-he-ho

- نظرية جسبرسن الذي طالب بدراسة وافية للغة الطفل، ولغات القبائل البدائية، ودراسة تاريخية للتطور اللغوي لمعرفة كيف نشأت اللغة الإنسانية الأولى وفق منهج علمي.
- نظرية فندريس: الذي يرى أن اللغة كانت لدى الإنسان الأول انفعالية محضة
- نظرية النشوء والتناسل: ترى هذه النظرية أن اللغة نشأت بالطفرة وبشكل تلقائي، حيث تفترض أن اللغة نشأت متكاملة في لحظة معيّنة ثم أعقبها التوالد والتكاثر.

لقد تعددت النظريات في مجال تفسير نشأة اللغة الإنسانية، وقد ميّز الله عز وجل الإنسان عن سائر المخلوقات بمنحه قدرات خاصة التي أدت به إلى وضع كلماته الأولى بوساطة الإصغاء والملاحظة والتقليد لما يحيط به، وكلما تطوّر الإنسان تطورت معه اللغة.